

«البداية والنهاية» (١)

لعماد الدين إسماعيل ابن كثير (ت ٧٧٤)

وفي ليلة الخميس ثالث عشر رجب وقت أذان العشاء توفي صاحبنا الإمام الشيخ العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرْعِي، إمام الجوزية، وابنُ قَيِّمِهَا، وصُلِّيَ عليه بعد صلاة الظهر من الغد بالجامع الأموي، ودُفِنَ عند والدته بمقابر الباب الصغير، رَحِمَهُ اللهُ.

وُلِدَ في سنة إحدى وتسعين وستمئة، وسمع الحديث، واشتغل بالعلم فبرع في علوم متعددة، لاسيما علم التفسير والحديث والأصولين، ولمَّا عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ، فأخذ عنه علمًا جمًّا مع ما سلف له من الاشتغال، فصار فريدًا في بابهِ في فنون كثيرة، مع كثرة الطلب ليلاً ونهارًا، وكثرة الصلاة والابتهاال.

وكان حسنَ القراءة والخُلُق، كثير التودُّد، لا يحسد أحدًا ولا يؤذيه، ولا يستغيبه (٢) ولا يحقد على أحد، وكنت من أصحابِ الناس له وأحبِّ الناس إليه، ولا أعرف من أهل العلم في زماننا أكثر عبادةً منه، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جدًّا ويمدُّ ركُوعَهَا وسُجُودَهَا، ويلومه كثير من أصحابنا في بعض الأحيان، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك، رَحِمَهُ اللهُ.

(١) (١٨/٥٢٣-٥٢٤) تحقيق عبد الله التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات بدار هجر، ط الأولى، ١٤١٩.

(٢) نقله ابن شاکر في «عيون التواريخ»: «ولا يستغيبه» بالغين.

وله من التصانيف الكبار والصغار شيء كثير، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً، واقتنى من الكتب ما لا يتهاى لغيره تحصيل عُشره من كتب السلف والخلف.

وبالجملة، كان قليل النظير، بل عديم النظير في مجموعته وأموره وأحواله، والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة، سامحه الله ورحمه.

وقد كان متصدياً للإفتاء بمسألة الطلاق التي اختارها الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، وجرت له بسببها فصول يطول بسطها مع قاضي القضاة تقي الدين السبكي وغيره.

وقد كانت جنازته حافلة، رَحِمَهُ اللهُ، شهدها القضاة والأعيان والصالحون من الخاصة والعامة، وتزاحم الناس على حمل نعشه، وكَمَل من العُمُر ستون سنة، رَحِمَهُ اللهُ.

* * *

«المنتقى من معجم شيوخ شهاب الدين ابن رجب»^(١)

عبد الرحمن بن أحمد بن رجب (ت ٧٩٥)

محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الأصل، ثم
الدمشقي الحنبلي، الشيخ الإمام العلامة شمس الدين أبو عبد الله المعروف
بابن قيم الجوزية.

أحد الأعلام، نادرة المفسرين أوجد المحققين، سمع من التقي سليمان
والشهاب العابر وعيسى المطعم والبهاء ابن عساكر والحجّار وخلق، وأفتى
وبرع واشتهر وبعد صيته، وساد أهل وقته علمًا وعملاً أصولاً وفروعاً، مع
الخشوع والعبادة الطويلة والتواضع والصبر، وقد أُوذِيَ وامْتَحَن مرات،
وتفقه بابن تيمية.

ومن مصنفاته: «الهدي النبوي» أربع مجلدات لم يسبق إلى مثله،
وكتاب «صفة الجنة»^(٢) في مجلدة، وكتاب «مفتاح دار السعادة»، وكتاب
«اجتماع الجيوش الإسلامية على الجهمية»، وكتاب «أعلام الموقعين عن
رب العالمين»، وكتاب «مسايد الشيطان»، وكتاب «الطرق الحكيمة»،
وكتاب «الصواعق المرسلّة على المعطلة» مجلدات، وكتاب «الداء والدواء»
شكى إليه المحبة فصنفه، وكتاب «نزهة المشتاقين وروضة المحبين» في الرد

(١) المنتقى من معجم شيوخ شهاب الدين ابن رجب، ص ١٠٠-١٠٢. دار غراس
١٤٢٦، تحقيق عبد الله الكندري. طبع منسوباً إلى ابنه زين الدين عبد الرحمن،
والصواب أنه انتقاء ابن قاضي شُهبة.

(٢) هو: «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح».

على وجوب العشق، و«فضل العلم» مجلد، و«تفضيل مكة على المدينة» مجلد، و«نكاح المحرم» مجلد، و«رفع اليدين» مجلد، وكتاب «اختلاف»^(١) أهل الملل» مجلدان، وكتاب «الصبر» مجلد^(٢)، وكتاب «الصلاة» مجلد، وكتاب «الكبائر»، وكتاب «بدائع الفوائد» مجلدان، و«الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية»، و«فتاوى» سُئِلَ عنها تبلغ مجلدات. ونقلْتُ من خطه في إجازة قال: تبلغ في تنوعها عدة أسفار.

قال: ومن جملة التواليف كتاب «تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته والكلام على ما فيه من الأحاديث المعلولة» مجلد، وكتاب «سفر الهجرتين وباب السعادتين» مجلد ضخّم، وكتاب «مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» مجلدان، وكتاب «عقد محكم»^(٣) الإخاء بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى رب السماء» مجلد ضخّم، وكتاب «أسماء الكتاب العزيز» مجلد، وكتاب «زاد المسافرين إلى منازل السعداء في هدي خاتم الأنبياء» مجلد، وكتاب «جلاء الأفهام في ذكر الصلاة والسلام على خير الأنام وبيان أحاديثها وعللها» مجلد، و«بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل» مجلد، و«نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول» مجلد، و«بطلان الكيمياء من أربعين وجهًا» مجلد، و«حقيقة المحبة» مجلد، و«الفرق بين الخلّة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه» مجلد، و«حكم إغمام هلال رمضان»، وكتاب «نور المؤمن وحياته»

(١) كذا في ط، ولعله تحريف: «أحكام أهل الملل» وهو كتاب أحكام أهل الذمة.

(٢) هو: «عدة الصابرين».

(٣) ط: حكم، والتصويب من المصادر الأخرى.

مجلد، و«الرسالة المصرية»، و«الرسالة المكية والقدسية والماردانية»، و«التحرير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير»، و«جواب عابدي الصلبان وما هم عليه من دين الشيطان»، وغير ذلك من الأجوبة.

سمع عليه شهاب الدين ابن رجب بعض مصنفاته، قال: وحصل لنا مجالسته من النفع والحضور والذكر خير كثير وبركة، فجزاه الله خيراً.

مولده سنة إحدى وتسعين وستمائة، وتوفي ليلة الخميس ثالث عشر رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، وصُلِّيَ عليه عقيب صلاة الظهر بالجامع الأموي [ثم] ^(١) بجامع جراح، وكانت جنازته مشهودة، ودفن بمقبرة الباب الصغير عند والده، وطاب الثناء عليه، ورثت له الرؤيا الحسنة رَحْمَةُ اللَّهِ، ولم يخلف بعده مثله، ومن شعره:

لَئِنْ كَانَ تَجْسِيماً ثُبُوتُ صِفَاتِهِ تَعَالَى فَيَايَ (٢) الْيَوْمَ عَبْدٌ مُجَسِّمٌ

ودُفِنَ إلى جانبه ولده جمال الدين عبد الله أعجوبة زمانه، في رجب سنة ست وخمسين وسبعمائة رَحْمَةُ اللَّهِ.

* * *

(١) زيادة لازمة من المصادر.

(٢) في المطبوع: «فأنا» ولا يستقيم به الوزن. وانظر «مدارج السالكين»: ٣٤٢ / ٢، و«الصواعق»: ٩٤٠ / ٣.

«الذيل على طبقات الحنابلة»^(١)

لعبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥)

محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزُّرْعِي ثم الدمشقي،
الفقيه الأصولي، المفسر النحوي، العارف، شمس الدين أبو عبد الله ابن قَيِّم
الجوزية، شيخنا.

ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة.

وسمع من الشهاب النابلسي العابر، والقاضي تقي الدين سليمان،
وفاطمة بنت جوهر، وعيسى المطعم، وأبي بكر بن عبد الدايم، وجماعة.

وتفقه في المذهب، وبرع وأفتى، ولازم الشيخ تقي الدين وأخذ عنه.
وتفنن في علوم الإسلام. وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه وبأصول الدين،
وإليه فيهما المنتهى؛ وبالحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا
يلحق في ذلك؛ وبالفقه وأصوله بالعربية، وله فيها اليد الطولى، وبعلم
الكلام وغير ذلك. وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم
ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى.

قال الذهبي في «المختص»: «عُني بالحديث ومتونه، وبعض رجاله.
وكان يشتغل في الفقه ويجيد تقريره، والنحو ويديره، وفي الأصولين. وقد
حُبِس مدة لإنكاره شدَّ الرحيل إلى قبر الخليل. وتصدى للإشغال، وإقراء
العلم ونشره.

(١) (٥/ ١٧٠ - ١٧٩) تحقيق عبد الرحمن العثيمين. مكتبة العبيكان، ط الأولى ١٤٢٥.

قلت: وكان رَحْمَةُ اللَّهِ ذا عبادة وتهجد، وطول صلاة إلى الغاية القصوى، وتألُّهٍ ولهجٍ بالذكر، وشغف بالمحبة، والإنابة والاستغفار، والافتقار إلى الله، والانكسار له، والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته، لم أشاهد مثله في ذلك، ولا رأيتُ أوسع منه علمًا، ولا أعرفُ بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه، وليس هو بالمعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله. وقد امتحن وأوذى مرات، وحُبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة، منفردًا عنه، ولم يُفَرِّج عنه إلا بعد موت الشيخ.

وكان في مدة حبسه مشغولًا بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكير، ففُتِحَ عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجهيد الصحيحة، وتسلبت بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف، والدخول في غوامضهم، وتصانيفه ممتلئة بذلك.

وحج مرات كثيرة، وجاور بمكة. وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف أمرًا يتعجب منه. ولازمْتُ مجالسه قبل موته أزيد من سنة، وسمعت عليه: «قصيدته النونية» الطويلة في السنة، وأشياء من تصانيفه، وغيرها.

وأخذ عنه العلم خلق كثير من حياة شيخه وإلى أن مات، وانتفعوا به، وكان الفضلاء يعظمونه، ويتلمذون له، كابن عبد الهادي وغيره.

وقال القاضي برهان الدين الزُّرْعِي عنه: ما تحت أديم السماء أوسع علمًا منه.

ودرَّس بالصدرية. وأمَّ بالجوزية مدة طويلة. وكتب بخطه ما لا يوصف

كثرة.

وصنف تصانيف كثيرة جداً في أنواع العلم. وكان شديد المحبة للعلم وكتابته ومطالعه وتصنيفه، واقتناء الكتب، واقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره.

فمن تصانيفه: كتاب «تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته والكلام على ما فيه من الأحاديث المعلولة» مجلد، كتاب «سفر الهجرتين وباب السعادتين» مجلد ضخيم، كتاب «مراحل السائرين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» مجلدان، وهو شرح «منازل السائرين» لشيخ الإسلام الأنصاري، كتاب جليل القدر، كتاب «عقد محكم الإخاء»^(١) بين الكلم الطيب والعلم الصالح المرفوع إلى رب السماء» مجلد ضخيم، كتاب «شرح أسماء الكتاب العزيز» مجلد، كتاب «زاد المسافرين إلى منازل السعداء في هدي خاتم الأنبياء» مجلد، كتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد» أربع مجلدات، وهو كتاب عظيم جداً، كتاب «جلاء الأفهام في ذكر الصلاة والسلام على خير الأنام وبيان أحاديثها وعللها» مجلد، كتاب «بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل» مجلد، كتاب «نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول» مجلد، كتاب «أعلام الموقعين عن رب العالمين» ثلاث مجلدات، كتاب «بدائع الفوائد» مجلدان، «الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية» وهي القصيدة النونية في السنة مجلد، كتاب «الصواعق المنزلة على الجهمية المعطلة» في مجلدات، كتاب «حادي الأرواح إلى بلاد

(١) في ط: «الأحباء» ورجعت لنسخة عنيزة فوجدتها مشبهة الرسم، وفي نسخة ليبزج كما أثبت.

الأفراح» وهو كتاب «صفة الجنة» مجلد، كتاب «نزهة المشتاقين وروضة المحبين» مجلد، كتاب «الداء والدواء» مجلد، كتاب «تحفة المودود في أحكام المولود» مجلد لطيف، كتاب «مفتاح دار السعادة» مجلد ضخمة، كتاب «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو الفرقة الجهمية» مجلد، كتاب «مصايد الشيطان» مجلد، كتاب «الطرق الحكمية» مجلد، «رفع اليدين في الصلاة» مجلد. كتاب «نكاح المحرم» مجلد، «تفضيل مكة على المدينة» مجلد، «فضل العلماء» مجلد، «عدة الصابرين» مجلد، كتاب «الكبائر» مجلد، «حكم تارك الصلاة» مجلد، كتاب «نور المؤمن وحياته» مجلد، كتاب «حكم إغمام هلال رمضان»، «التحرير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير»، «جوابات عابدي الصلبان، وأن ما هم عليه دين الشيطان»، «بطلان الكيمياء من أربعين وجهًا» مجلد، «الفرق بين الخلعة والمحبة، ومناظرة الخليل لقومه» مجلد، «الكلم الطيب والعمل الصالح» مجلد لطيف، «الفتح القدسي»، «التحفة المكية»، كتاب «أمثال القرآن»، «شرح الأسماء الحسنى»، «أيمان القرآن»، «المسائل الطرابلسية» ثلاث مجلدات، «الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم» مجلدان، كتاب «الطاعون» مجلد لطيف.

توفي رَحْمَةُ اللَّهِ وقت عشاء الآخرة ليلة الخميس ثالث عشر^(١) رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة. وصُلي عليه من الغد بالجامع عقيب الظهر، ثم بجامع جراح. ودفن بمقبرة الباب الصغير، وشيَّعه خلقٌ كثير، ورثت له

(١) في المطبوع ونسختي عزيزة وليبزوج: «ثالث عشرين» ووقع كذلك (إن لم يكن من تصرف المحقق) في بعض الكتب الناقلة عن الذيل كالمقصد الأرشد والمنهج الأحمد ومختصره الدر المنضد. ووقع في مختصر ابن نصر الله على الصواب: «ثالث عشر»، كما في عامة المصادر.

وكان قد رأى قبل موته بمدة الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ في النوم، وسأله عن منزلته؟ فأشار إلى علوها فوق بعض الأكابر. ثم قال له: وأنت كدت تلحق بنا، ولكن أنت الآن في طبقة ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقرئ على شيخنا الإمام العلامة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب - وأنا أسمع - هذه القصيدة من نظمه في أول كتابه «صفة الجنة»:

وما ذاك إلا غيرة أن ينالها	سوى كُفئها، والرب بالخلق أعلم
وإن حُجِبَتْ عنا بكل كريهة	وحُفَّت بما يؤذي النفوس ويؤلم
فلله ما في حشوها من مسرة	وأصناف لذات بها يتنعم
ولله ذاك العيش بين خيامها	وروضاتها والثغر في الروض يبسم
ولله واديهما الذي هو موعد المـ	زيد لو فد الحب لو كنت منهم
بذيالك الوادي يهيم صباة	محب يرى أن الصباة مَغْنَم
ولله أفراح المحبين عندما	يخاطبهم من فوقهم ويسلم
ولله أبصار ترى الله جهرة	فلا الضيم يغشاها، ولا هي تسأم
فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة	أمن بعدها يسلو المحب المقيم
ولله كم من خيرة إن تبسمت	أضاء لها نور من الفجر أعظم
فيا لذة الأبصار إذ هي أقبلت	ويا لذة الأسماع حين تكلم
ويا خجلة الغصن الرطيب إذا انثت	ويا خجلة البحرين ^(١) حين تبسم
فإن كنت ذا قلب عليل بحبها	فلم يبق إلا وصلها لك مرهم

(١) في بعض نسخ «حادي الأرواح»: «الفجرين».

وذكر أبياتاً، ثم قال:

فيا خاطب الحسنة إن كنت باغيًا
وكن مبغضًا للخائنات لحبها
وكن أيّما ممن سواها، فإنها
وصم يومك الأدنى لعلك في غد
وأقدم، ولا تقنع بعيشٍ منغصٍ
وإن ضاقت الدنيا عليك بأسرها
فحيّ على جنات عدن، فإنها
ولكننا سبي العدو، فهل ترى
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى
وأي اغتراب فوق غربتنا التي
وحيّ على السوق الذي يلتقي الـ
فما شئت خذ منه بلا ثمن له
وحيّ على يوم المزيد الذي به
وحيّ على واد هالك أفيح
منابر من نور هناك وفضة
وكثبان مسك قد جُعِلن مقاعدًا
فبيناهم في عيشهم وسرورهم
إذا هم بنور ساطع أشرقت له

فهذا زمان المهر فهو المقدم
فتحظى بها من بينهن وتنعم
لمثلك في جنات عدن تأيم
تفوز بعيد الفطر والناس صوم
فما فاز باللذات من ليس يُقدم
ولم يك فيها منزل لك يعلم
منازلك الأولى، وفيها المخيم
نعود إلى أوطاننا ونسلم؟
وشطت به أوطانه فهو مُعدم
لها أضحت الأعداء فينا تحكّم؟
محبون^(١)، ذاك السوق للقوم معلم
فقد أسلف التجار فيه وأسلموا
زيارة رب العرش، فالיום موسم
وتربته من أذفر المسك أعظم
ومن خالص العقيان لا تتفصم
لمن دون أصحاب المنابر يعلم
وأرزاقهم تُجرى عليهم وتقسّم
بأقطارها الجنات لا يتوهم

(١) في ط: «المحبوب» تصحيف.

تجلّى لهم رب السماوات جهرة	فيضحك فوق العرش ثم يكلم
سلام عليكم، يسمعون جميعهم	بآذانهم تسليمه إذ يُسلم
يقول: سلوني ما اشتهيت، فكل ما	تريدون عندي، إنني أنا أرحم
فقالوا جميعاً: نحن نسألك الرضا	فأنت الذي تولي الجميل وترحم
فيعطيهما هذا ويشهد جمعهم	عليه، تعالى الله، والله أكرم
فيابائعا هذا ببخس معجّل	كأنك لا تدري، بلى، سوف تعلم
فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة	وإن كنت تدري، فالمصيبة أعظم

* * *